العلمانية في ضوء قيمنا الإسلامية
من منظور الدكتور محمد البهي

Secularism in the Light of Islamic Values from the Perspective of Dr. Muhammad Al-Bahayy

محمد فتحي فرج *
mohamedddh00001@must.edu.eg

ملخَّص:

تتناول هذه الورقة تعريفا مختصرا بحياة الأستاذ الدكتور محمد البهي وذلك بالتوقف السريع في محطات هامة من حياة هذا المفكر الإسلامي. ثم ذكرنا عناوين مجموعة كبيرة من مؤلفاته القيمة لنصل إلى مؤلفه الذي تركزت حول باب من أبوابه هذه الدراسة بشكل أساسي، وهو كتاب: "الإسلام في حل مشاكل المجتمعات الإسلامية المعاصرة". أما الباب الذي ورد في هذا الكتاب وكان المحور الأساسي في هذه الورقة فهو بعنوان: "مشكلة العلمانية". ولأهمية هذا الباب فقد طبعه مجمع البحوث الإسلامية ضمن سلسلة البحوث الإسلامية التي يصدرها ككتاب مستقل، ثم أعادت طبعه مجلة الأزهر، ليوزع معها كهدية مجانية، مع عدد شهر ربيع الآخر للعام 1415 هـ/ سبتمبر 1994م. وقد قمنا بتعريف العلمانية كما ورد في هذا الكتاب، وقد وصفها الدكتور البهي أنها داء ضمن أدواء أخرى ابتُلِي بها العالم الإسلامي. وقد تعرضنا لتحليلات الدكتور البهي التي بيَّن فيها كيف ظهرت العلمانية في المجتمعات الغربية لتحل محل الدين في هذه البلاد نتيجة لظروف تاريخية خاصة بهذه البلاد، ومن أهمها الصراع بين الدين والعلم في هذه البيئة التي تختلف تماما عن

* الأستاذ بجامعتي المنوفية ومصر للعلوم والتكنولوجيا.

البيئة الإسلامية التي لم يظهر فيها مثل هذا الصراع بين الإسلام والعلم. بل إن الإسلام قد حض على العلم وأثنى على العلماء، وامتدحهم ووضعهم في المكانة اللائقة بهم. وقد أضح الدكتور البهي موقف الإسلام من العلمانية؛ ما جعله يتطرق إلى مجموعة من القيم الدينية التي عرض لها الدكتور البهي في إنتاجه الفكري وذكرنا بعضها في هذه الدراسة.

الكلمات المفتاحية: الدكتور محمد البهي، أهم كتبه، العلمانية، الإسلام والعلمانية، بعض القيم الدينية.

Abstract:

This paper deals briefly with the life of Professor Dr. Muhammad Al-Bahayy by highlighting important stations in the life of this Islamic thinker. The researcher then mentions the titles of a large number of his valuable books, reaching to his book "Islam in Solving the Problems of Contemporary Islamic Societies." The main focus of this paper is a chapter in this book entitled "The Problem of Secularism." Due to the importance of this chapter, the Islamic Research Academy printed it as part of the Islamic Research Series and issued it as an independent book.

Secularism is defined, as stated in this book and as Dr. Al-Bahayy described it, as a lesion among others that afflict the Islamic world. The researcher also introduces Dr. Al-Bahayy's analyses in which he explains how secularism appeared in Western societies to replace religion in these countries as a result of historical circumstances specific to these countries, the most important of which is the conflict between religion and science in this environment, which is completely different from the Islamic environment in which such a conflict did not appear between Islam and science. Rather, Islam has encouraged knowledge and science, praised scholars, and placed them in the position they deserve.

Dr. Al-Bahayy explains Islam's view of secularism which made him address a set of religious values presented in his intellectual production; some of which are mentioned in this study.

Keywords: Dr. Muhammad Al-Bahayy, secularism, Islamic values and secularism.

مقدمة:

لكل إقليم من أقاليم مصرنا المحروسة شخصية متميزة، ونشاط ملحوظ في مجال معين من مجالات النشاط الإنساني. فإذا كان أهل دمياط مشهورين بالعقل الرياضي وإدراك العلاقات الهندسية والكمية، تلك الصفات التي تؤهل ذويها للاهتمام بدقائق الأمور فضلا عن عظائمها، ولذلك نجد منهم العلماء المبرزين .كالدكتور علي مصطفى مشرفة . رحمه الله . والدكتور عطية عبد السلام عاشور عالم الرياضيات المرموق والدكتور فاروق الباز الجيولوجي وعالم الفضاء المعروف، وغيرهم كثيرون . ونجد منهم أيضا الصُّناع المَهرة، والتجار الناجحين، ومنذ فترة قريبة أقيم احتفال مَهيب لكونها أولى محافظات مصر قضاءً على الأمية البغيضة. كما تمثلت شهرة المنوفية، إذا استثنينا المجال الزراعي الذي تشتهر به معظم محافظات مصر، بنهضة تعليمية يُعزَى معظمُها إلى نشاط جمعية المساعي المشكورة في أرجاء هذه المحافظة المعطاءة. أما محافظة البُحيرة فإنها تتبوأ مكانها ضمن الصف الأول بين المحافظات التي تتميز بتَوجُهها الديني، فهي تشتهر بالكثيرين من علماء الدين الأعلام، الذين ساهموا مع غيرهم في رفع لواء الإصلاح والجهاد، في كل المجالات.

وقد نبت في أرض هذه المحافظة الزكية كل من الإمام محمد عبده الذي وصفه العقاد . رحمه الله . بعبقري الإصلاح والتعليم، وهو عنوان لواحد من أواخر ما ألف من كتب، والشيخ سليم البشري، والشيخ محمود شلتوت، وكل منهما كان شيخا للأزهر الشريف، ومنها أيضا العالم الفقيه الدكتور محمد محمد المدني، والأستاذ الدكتور محمد عبده ماضي، والشيخ عبد الله المشد، والدكتور محمود حب الله المدير الأسبق للمركز الإسلامي في أمريكا، وامتدادا لهذه السلسلة الذهبية ينتمي إلى هذه المحافظة أيضا المرحوم الشيخ عبد العزيز عيسى، وزير الأوقاف الأسبق، والداعية الإسلامي الكبير الشيخ محمد الغزالي . رحمه الله تعالى وأجزل له العطاء.

أ. د. محمد البهي

في هذه الأرض الطيبة من ربوع مصرنا الغالية، وفي هذا العبق الروحاني والمناخ الفطري الطاهر الذي يبعث على حب الدين وتبجيله، وانتهاج سراطه المستقيم، ومنهاجه القويم، ولِدَ الأستاذ الجليل الدكتور محمد البهي . رحمه الله . في الثالث من أغسطس عام 1905، وهو العام الذي توفي فيه الإمام الشيخ محمد عبده، وعلى ذلك ففي العام القادم (2025) يمر قرن وعشرون عاما من الزمان على وفاة الأستاذ الإمام محمد عبده ومثل ذلك على ميلاد الدكتور محمد البهي.

محطات هامة في حياة الدكتور البهي:

حفظ الدكتور البهي القرآن الكريم في حداثة سنه، وتلقى تعليمه بالأزهر الشريف، فحصل على درجة التخصص عام 1931، ثم سافر في العام نفسه إلى ألمانيا لدراسة الفلسفة في منحة على نفقة محافظة البحيرة (مديرية البحيرة آنذاك). وبعد عودته اشتغل بتدريس الفلسفة في كلية أصول الدين التي انتقل منها إلى كلية اللغة العربية في العام 1950 ليعمل أستاذا ورئيسا لقسم الفلسفة بها، كما اضطلع بالعمل العام وأبلى فيه بلاء حسنا، حيث كُلِّف إلى جانب التدريس بالعمل مديرا عاما للثقافة الإسلامية بجامعة الأزهر، ومن ذلك أيضا أنه اهتم بأمور الأزهر، وعمل مع آخرين على إصلاحه، على اختلاف الدور مع كل وظيفة رسمية يتقلدها، فقد أسهم بالنظر

والفكر، وقت أن كان أستاذا بالجامعة، ثم أتيحت له فرصة التنفيذ، حينما كان أول من تولى إدارة جامعة الأزهر إبان تطويرها عام 1961، وقد تدعّم هذا الدور أيضا بتوليه عقب ذلك وزارة الأوقاف وشئون الأزهر في أوائل الستينات من القرن الماضي (1962) . ثم تولى . بعد فترة الوزارة . إدارة جامعة الأزهر مرة أخرى (1964).

وللرجل آثاره الفكرية، واجتهاداته الذهنية، وإنتاجه الأدبي والثقافي، في مجال الفكر الإسلامي بين النظر والتطبيق. هذا، بخلاف مقالاته المنتظمة في مجلة الأزهر وغيرها من المجلات. ومن آثاره الفكرية التي ظهرت في كتب، توالت طبعاتها الواحدة تلو الأخرى، وقد أعيد طبع بعضها أو أجزاء منها في سلاسل شعبية واسعة الانتشار، كسلسلة "كتاب الهلال"، وسلسلة مجمع البحوث الإسلامية وغيرها، ومن هذه الآثار الفكرية ما يلي:

. الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي.

وقد توالت طبعاته عدة مرات، منذ ظهور الطبعة الأولى منه في عام 1945، وقد ظهرت طبعته الرابعة . التي بين أيدينا الآن . عام 1967.

. الدين والدولة: من توجيه القرآن الكريم.

. الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي.

ويذكر الأستاذ الدكتور محمود حمدي زقزوق أن هذا الكتاب كان سبب شهرة الدكتور محمد البهي، في العالمين العربي والإسلامي[1]، وقد توالت طبعاته . بعد نفادها . عدة مرات. وقد تُرجِم هذا الكتاب المُهم إلى كثير من اللغات الحية. وهو أول دراسة عربية تتصدى لمثل هذا المنحي الفكري بعد أن كان التعويل على المفكرين الغربيين أمثال: "جب" و"جيوم" و "ماسينيون"، وغيرهم ممن أرخوا للفكر الإسلامي الحديث.

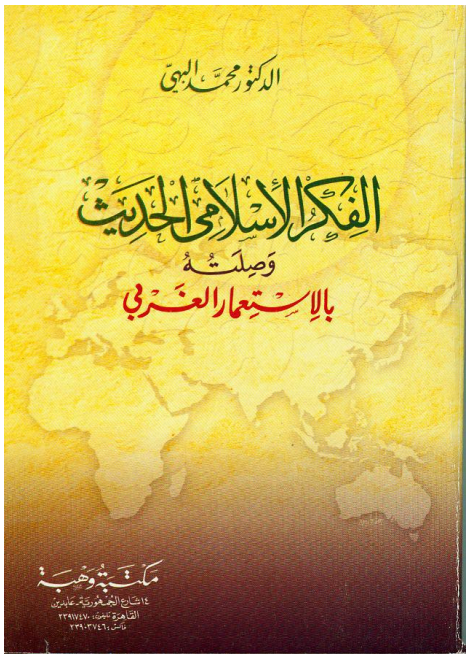

. الإسلام في حياة المسلم.

. الدين والحضارة. وقد ظهر ضمن سلسلة كتاب الهلال، واسعة الآنتشار في ذلك الوقت.

. نحو .. القرآن.

. الإسلام في الواقع الأيديولوجي المعاصر.

. طبقية المجتمع الأوربي وانعكاس آثارها على المجتمع الإسلامي المعاصر.

. منهج القرآن في تطوير المجتمع.

. تهافت الفكر المادي التاريخي.

. من مفاهيم القرآن في العقيدة والشريعة.

. المجتمع الحضاري وتحدياته من توجيه القرآن.

. حياتي في رحاب الأزهر طالبا وأستاذا ووزيرا.

. الإسلام في حل مشاكل المجتمعات الإسلامية المعاصرة.

وقد افتتح الدكتور البهي هذا الكتاب . بعد مقدمة موجزة . بالباب الأول تحت عنوان: "مشكلة العلمانية"، وهو من أهم أبواب هذا الكتاب، وقد طبع هذا الباب ضمن سلسلة مجمع البحوث الإسلامية ككتاب مستقل، ثم أعادت طبعه مجلة الأزهر، ليوزع معها كهدية مجانية، مع عدد شهر ربيع الآخر للعام 1415 هـ/ سبتمبر 1994م. هذا، إلى غير ذلك من كتب يصل عددها إلى حوالى 23 كتابا، أما الرسائل الصغيرة فيصل عددها إلى نحو 22رسالة. وليس المهم بعدد الكتب، ولكن الأهم هو قيمتها التي تتمثل في محتوياتها من قضايا وأمور تمس حياة المسلم المعاصر.

غلاف كتاب: "الإسلام في حل مشاكل المجتمعات الإسلامية المعاصرة".

ويبدو أن الدكتور البهي كان يقتفي أثر "مواطنه وبلدياته" الشيخ الإمام محمد عبده، فثمة ضربان آخران للشبه يتمثلان في جانبيْن هاميْن في الرجلين كليهما، أما الأول فينحصر في توجه كل منهما ومناداته بإصلاح الأزهر والتعليم بوجه عام، بغض النظر عن الاتفاق أو الاختلاف مع أي منهما أو كليهما إن كان ثمة اختلاف، وعلى كل حال فللمجتهد في الإسلام أجران إن أصاب المجتهد، ولن يحرم الأجر أيضا إن هو لم يُصِب الهدف. أما الجانب الثاني فيتمثل في أن كلا منهما لم ينفصل عن قضايا عصره، بل تعرّف عليها، ودرسها جيدا، ثم ناقش ما جاء فيها من آراء، وواجه أصحابها ليس بآراء شفهية، قد تذهب أدراج الرياح، ولكن بكتابات موثّقة تُطبع الحين بعد الحين، في طبعات متكررة، لتفيد من منهجها وآرائها الأجيال المتعاقبة.

أما قطب الرحى في صنيع كل منهما فقد تمثل في تفسير القرآن الكريم، فقد ترك لنا الأستاذ الإمام "تفسير المنار"، الذي بذل جهدا مشكورا في جمعه وترتيبه وإظهاره للنور تلميذه ومريده الشيخ رشيد رضا . أجزل الله له العطاء. أما أستاذنا الدكتور محمد البهي فقد ترك لنا "التفسير الموضوعي للقرآن الكريم"، حيث قام . رحمه الله . بتفسير 23 سورة من سور القرآن الكريم بالإضافة إلى "جزء عم" كله؛ وهو بحق عمل رائد في عصرنا الحديث، سبق به الكثيرين من معاصريه في هذا الباب.

والذي لا نشك فيه . بناء على ما تقدم . أن الدكتور البهي كان مُعجبا بل مبهورا بشخصية الأستاذ الإمام، ومن ثم فقد اتخذه قدوة ومثلا، وتأكّد ذلك . على نحو ما سنبين لاحقا . بعد أن درس فكره دراسة منهجية، في جامعة مرموقة من جامعات الغرب.

أما بركة الأستاذ الإمام محمد عبده، فقد أدركت أستاذنا الدكتور البهي؛ إذ كان الأول سببا غير مباشر لأن يسير الثاني سيرته التي سارها، ويتبع طريقه الذي انتهجه، سواء من باب القدوة والإعجاب، أو بسبب بعض الإجراءات والترتيبات التي كان وراءها اسم الشيخ محمد عبده . رحمه الله، على الرغم من أن ذلك قد تم بعد وفاة الإمام بفترة كبيرة. ويتلخص هذا في أن أهل الفضل والخير، من العارفين بمكانة الأستاذ الإمام، أرادوا أن يكرّموه بعد رحيله بإقامة تمثال له في عاصمة المحافظة، إلا أنهم عَدَلوا عن هذه الفكرة في اللحظة الأخيرة؛ وذلك لعلمهم بأن ذلك مما يتنافى مع مبادئه التي عاش ومات من أجلها، ومِن ثمّ فقد استبدلوا بذلك خيارا آخر، تمثّل في اختيار رجلين نابهين من أبناء المحافظة وأرسلوهما في بعثة إلى أوربا، ليضيفا إلى عِلم الشرق، عِلم الغرب ومناهجه الحديثة، في البحث والدرس، فيمزجا بين الدين والمدنية، فكانت إحدى هاتين البعثتين من نصيب المرحوم الدكتور البهي .. وهكذا ارتبط مصير الدكتور البهي، بصورة أو بأخرى، بالشيخ محمد عبده. أما الارتباط الثاني والأعمق، والذي جاء باختيار الدكتور البهي نفسه، فكان عندما اختار طالب

الدراسات العليا، محمد البهي، الفكر التربوي للشيخ محمد عبده، لكي يسجل حوله رسالته للدكتوراه في جامعة هامبورج بألمانيا، وذلك تحت عنوان: "محمد عبده: دراسة لمنهجه التربوي من أجل الوعي الوطني ونهضة الأمة" ، ولم يكن ذلك إلا عن حب وتقدير للأستاذ الإمام، وإعجاب بمنهجه الإصلاحي؛ ولذلك فلم يكن غريبا أن يحتفظ الدكتور البهي، في غرفة مكتبه، بمنزله .كما يقول أستاذنا الدكتور محمود حمدي زقزوق . بصورة كبيرة للأستاذ الإمام محمد عبده.

أما مسوّغاته الأكاديمية، في اختياره لهذا الموضوع، فقد بلورها الدكتور البهي في كون الدارسين الذين سبقوه قد اهتموا في دراساتهم بتناول جزئيات من رسالة محمد عبده ومواقفه، إلا أن واحدة من هذه الدراسات لم تحاول الاهتمام باستعراض الصلة الوثيقة التي تربط تصوراته النظرية وأثارها العملية في الواقع. ثم يُرْدِفُ قائلا: ولم يبحث أحد حتى الآن (حتى وقت إعداد الرسالة) ما أهداف محمد عبده؟ وما وسائل اجتهادات رؤيته للحياة وللعقيدة ؟ ثم يقول: وعلى الرغم من أن محمد عبده لم يلخّص تصوراته تلك في كتاب واحد، بل إنه كتب مقالات متفرقة، وتناول بالبحث موضوعات جمة، إلا أنها جميعا كانت ذات هدف محدد وتصب في مسار واحد في نهاية الأمر. ومن ثم فقد حاول الدكتور، في رسالته، أن يجيب عن هذه الأسئلة مجتمعة، ليضع لنا صورة مجملة عن غايات الأستاذ الإمام ووسائله في تحقيق هذه الغايات، وِفْقَ المنهج العلمي الحديث، ومن ثم فقد جاء عنوان رسالته عن الإمام على نحو يبلور هذه الرؤية الشاملة، والتصور العام لفكر الرجل، وبشكل يجمع كل شيء يتعلق به، وكل النقاط التي اهتم بها.

ويرى الدكتور البهي أن الأستاذ الإمام قد اهتم بمجالات متعددة منها على سبيل المثال: اهتمامه بالدين والأخلاق والفلسفة والعلوم السياسية، إلى غير ذلك من اهتمامات، يرتبط بعضها . بصورة أو بأخرى . ببعض, والجدير بالذكر أن المتصفح لآثار الدكتور البهي يرى أنها ذاتها الاهتمامات الرئيسية للأستاذ الإمام، عبر مسيرته

الفكرية والعلمية، ومن ثم كان التشابه الكبير بين آثار الرجلين .كما قدّمنا آنفا . على اختلاف في التناول، وفي الجزئيات التي تعبر عن نبض الزمن الذي عاش كل منهما فيه.

الدكتور البهي يُشخّص بعض الأدواء :

تعرض العرب والمسلمون في الآونة الأخيرة إلى موجات من حملات التشهير والتحقير، والاعتداءات المعنوية والمادية، دون ما سبب يسوِّغُه عقل أو خلق أو دين، إلا طمع الإنسان في أخيه الإنسان، وإلا نظرة التعالي، والتباهي بالقوة، واستعراض العضلات، وفرض الهيمنة والوصاية، حتى إن بعض الكتب التي تطبع شرقا وغربا تصوّر بوضوح وِجْهةَ النظر هذه، ويبدو ذلك جليا لا في محتوى هذه الكتب فحسب، ولكن أيضا في عناوينها[2]. وكنا نحسب أن الاستعمار بشكله القديم قد انتهى، ولكن يبدو أنه يعود مرة أخرى بعد أن فشل في استعمارنا من الداخل إلى استعمارنا من بُعد عن طريق الغزو الفكري الذي كشفه وحاربه نفر من علمائنا ومفكرينا الأفذاذ، وعلى رأسهم يأتي اسم الدكتور محمد البهي . رحمه الله.

وقد أوضح أستاذنا الدكتور البهي . رحمه الله . وجهة النظر هذه، منذ أكثر من ستين عاما مضت، وذلك في مقال هام له في مجلة الأزهر حيث يقول: إن أي مجتمع إسلامي في أي بلد إسلامي، في الوقت الحاضر تخلى عنه الاستعمار، نتيجة لحركة الاستقلال الوطنية فيه، وأصبح مستقلا، أخذ يتطلع إلى المجتمعات الأخرى المعاصرة التي تفوقت في الصناعة، وتقدمت في البحث العلمي ومن ثم في استغلال الثروة الوطنية، ليرتفع مستواها، ودخل الفرد فيها. وحينما تتطلع المجتمعات المسلمة لهذا المستوى من التقدم، قد تتوقف عند أسباب ضعفها وعوامل التخلف التي تعوقها عن هذا التقدم لتتساءل: أيكمن ذلك في البعد عن تعاليم صحيح الإسلام وإعمال

مبادئه في حياة المسلمين؟ أم تتمثل هذه الأسباب و تلك العوامل في الانتساب إلى الإسلام والعمل بتعاليمه[3]؟

ومن أسباب هذا الانقسام . في رأي الدكتور البهي . أنه إذا كان ثمة استعمار قد خرج عن طريق الحركة الوطنية الاستقلالية فهناك استعمار آخر يريد أن يحل محله ويقوم بدوره. فلم يخرج الاستعمار إلا بعد أن قسّم المجتمع الإسلامي إلى طائفتين، طائفة أعدّها لمعاونته في ميادين التأثير المختلفة، أما الطائفة الأخرى فقد أهملها وانتقص من شأنها، وهي التي احتضنت القيم الإسلامية ونافحت عنها. وبذلك وضع القيم الإسلامية موضع الصراع بين الطائفتين في المجتمع. طائفة ترضى عنها وتريدها سبيلها ومنهجها في الحياة، وأخرى تنفر منها وتريد أن تبعدها كلية من توجيه الحياة. فالمجتمعات الاسلامية التي تحررت من الاستعمار لم تتحرر منه نتيجة لجهود المنظمات الدولية؛ وإنما تحررت منه بفضل تضحيات الوطنيين في سبيل الله، ولولا مبدأ الجهاد في سبيل الله . الذي هو مبدأ رئيسي في النظام الإسلامي، والذي يصفه الاستعمار بالرغبة في الاعتداء . لما تحررت الشعوب الإسلامية ولفنيت في المستعمرين كطبقة دنيا بين طبقاته. ويخلص الدكتور البهي إلى إن بقاء المجتمع وقوته ليسا في إبعاده عن تراثه الروحي والفكري، وإنما بصيانة هذا التراث وحده. ويؤكد . رحمه الله . أن سياسة بعض الدول الكبرى (كان يقصد وقتها الاتحاد السوفييتي السابق) تُسقط اعتبار المواطن الذي لا يؤمن باتجاه الدولة فيها، ثم يستطرد وكأنه كان يستقرئ الغيب، أو كأن التاريخ يعيد نفسه، ليقول[4]: وسياسة البعض الآخر منها تعتبر ما لا يدور في فلكها وفي اتجاه سياستها الدولية من شعوب أخرى في حساب الخصوم والأعداء (وقد كان ذلك، ولا يزال . الآن وبوضوح . هو السلوك الأمريكي). ثم يؤكد على أن الإسلام، وهو دين الإنسانية، لا يمس كيان مجتمع آخر مختلف عنه في الديانة والنظرة إلى الحياة، ولا ينظر إليه نظرة عدائية مادام أن هذا المجتمع يجنح إلى السلم ويلتزم عدم الاعتداء، مصداقا لقوله تعالى: "وان جنحوا للسلم فاجنح لها

وتوكل على الله إنه هو السميع العليم". الأنفال: 61، كما أنه يلتزم العدل مع الفرد غير المسلم مادام لا يرتكب الظلم والعدوان: "ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله". المائدة: 8.

إلا أن هناك كثيرا من الغربيين، سواء من المفكرين أو السياسيين، الرسميين وغير الرسميين، يريدون أن يصبغوا العالم كله بالصبغة العلمانية، المتحررة من قواعد الدين وأصوله. وقد كانوا يعبرون في الماضي عن وجهة نظرهم هذه بشيء من المواربة والمصانعة، ويغلفون آراءهم بشيء من الكياسة والدبلوماسية، ويلبسون أفكارهم ثوب البحوث العلمية والتعقيدات الفكرية. بيْد أن الأمر اختلف تماما لاسيما في العقود الأخيرة، وأصبح الجميع يكاد يتكلم لغة واحدة مباشرة دون تحفظ أو حتى مراعاة لاختلاف الديانات والثقافات والعادات والتقاليد. لغة تخلو من الديبلوماسية، أو الكياسة في التعبير، أو حتى ترعى حرمة التاريخ، أو تعترف بالحقيقة وتحترمها، لدرجة أن السياسيين المخضرمين الذين يفترض فيهم الحرص والتحوط في التصريحات والبيانات نراهم الآن يفتقرون إلى هذه الخصيصة لاسيما حينما يتحدثون عن الإسلام والمسلمين، ومن هؤلاء بعض المسئولين في المملكة المتحدة وإيطاليا والولايات المتحدة وغيرها. بل وانتقلت الدعوة والترويج من العلمانية إلى العولمة، ولكن جوهرها واحد. وبما أن أستاذنا الدكتور البهي لم يدرك الدعوة إلى العولمة، ونستطيع أن نؤكد هنا أنه لو أدركها لهاجمها كما هاجم سابقتها العلمانية، ولأن العولمة خرجت من رحم العلمانية فسنتعرض لها ولمنهج الدكتور البهي في نقدها ونقض مشروعيتها في شرقنا العربي الإسلامي.

ما هي العلمانية؟!

الدكتور البهي من أوائل من تعرضوا لتقديم وشرح مفهوم العلمانية، فيذكر في أحد كتبه، في فصل تحت عنوان "مشكلة العلمانية ": إن لفظة علمانية تنسب . على غير قياس . إلى العالم، أو العالمية Secularism؛ فهي نظام من المبادئ والتطبيقات يرفض كل صورة من صور الإيمان الديني والعبادة الدينية[5].

ولأن العلمانية . فكرا وتطبيقا . نشأت في المجتمعات الغربية في ظل ظروف خاصة بهذه المجتمعات، التي سادت فيها آراء الكنيسة ورجال الدين في الغرب المسيحي الذين كانوا يدسُّون أنوفهم في كل شاردة وواردة؛ مما جعل العلماء والفلاسفة والمفكرين والأدباء في الغرب يشعرون بحالة من التقييد والتكبيل، أفضت بهم في النهاية إلى حالة من التمرد التي أفرزت هذا الفكر، وهذا الاتجاه الذي أدى إلى فصل الدين عن الدولة، وتقليص نفوذ رجال الدين؛ مما أسموه بعد ذلك العلمانية أو الفكر العلماني. وفي ذلك يقول الدكتور البهي: العلمانية اعتقاد بأن الدين والشئون الإكليريكية (اللاهوتية والكنسية) والرهبنة لا ينبغي أن تتدخل في أعمال الدولة، وبالأخص في التعليم العام؛ ومن ثمّ يعني التحول إلى العلمانية: التحول من الملكية الدينية إلى الملكية المدنية، أو من الاستعمال الديني إلى الاستعمال المدني .. هو التخلص من سلطة الرهبنة والعهد الرهبني .. هو التحول إلى الانتماء المدني. أما العلماني Secular، فهو كل ما يتعلق بالحياة الدنيوية المؤقتة، وليست له قداسة مقابل الشئون الكنسية، ومنه الموسيقى الدينية أو الكنسية، والمدرسة الدنيوية . أو المدنية . مقابل المدرسة الإكليريكية. وبهذه المثابة، فالمجتمع الأوربى يتميز بثنائية .. فهنا دولة وكنيسة: مدني وديني .. هنا حياة دنيوية غير مقدسة وحياة أخرى كنسية لها قداستها .. هنا دولة لها سلطتها، وتريد أن تتوسع في سلطتها، وهناك أيضا كنيسة لها سلطة كذلك، وتريد أن تحافظ على الأقل على سلطتها في مواجهة سلطة الدولة.

وهناك حياة مدنية ودنيوية تخضع للتغيير والتطور، إذن فهذا يمثل مشكلا، لا يبرز إشكاله إلا وقت أن يتصادم، ومن ثم يتخاصم الطرفان، ويمتنع أي منهما عن أن يخضع للطرف الآخر، بسبب من الأسباب.

فقد كانت الكنيسة تكاد تكون صاحبة السلطة المسيطرة، طوال القرون الوسطى في أوربا. حتى بدأ الإنسان الأوربي يكشف مجالا آخر يرى فيه استقلاله عن الكنيسة، وهو مجال البحث العلمي في المجالات الطبيعية، ثم أخذ يشعر بوجود نفسه المستقل يوم أعلن قانون الجاذبية، وأخذ يعتز بنفسه يوم استخدم قوة البخار في الصناعة والنقل، ثم كلما اكتشف قوة أخرى، ابتعد عن الكنيسة وسيطرتها، بل واتهم الكنيسة ونال من دين الكنيسة، وقد زادت هذه الاتهامات بعد أن اكتشف الطاقة الكهربية، وفجر الذرة، وانشغل بأبحاث الفضاء .. وهو إذ يوجه اتهاماته للكنيسة وينال من دينها لم يكن ذلك بناء على أدلة علمية يقينية توجب إبعاد المسيحية، وإنما . في الأغلب . يستهدف من كثرة الاتهام والنيل؛ المحافظة على حريته في حركة البحث، وفي السلوك في ظل دولة قوية مستقلة عن الكنيسة، وعن رأي رجال الإكليروس فيها[6].

والرأي الذي عليه معظم المتعقلين أنه لما هبت الثورة العلمية في عصر النهضة وقفت منها الكنيسة الغربية موقفا عنيدا، لم يجن على العلم وإنما جنى على الدين حين حمّلَه رجاله أكثر مما يحتمل، لدرجة أن النظرة إلى الدين في الغرب . بشكل عام . أنه عائق أمام التقدم وأنه يمثل سياجا يحجب العقل عن رؤية الحقيقة، ومن ثم فلا مجال للتقدم ما لم يتحرر من وقر الدين، حتى إن بعض الفلاسفة مثل هيوم يقول: ما من تفكير يتناول الواقع والوجود ولا يقوم على التجريب إلا وهم وسفسطة أحرى بأن نلقي به إلى النار.

ويخْلُصُ الدكتور البهي بعد استعراضه لأهم خصائص الفكر الفلسفي العلماني في أوربا إلى ما يلي:

أولا: إن دافع العلمانية في القرنين السابع عشر والثامن عشر كان هو: التنازع على السلطة بين الدولة والكنيسة؛ ولذا كان الفصل بين السلطتين هو الحل الفلسفي، أو الرسمي لهذا التنازع.

ثانيا: أن الدافع إليها في القرن التاسع عشر، أو فيما يسمى: بين اليسار الثوري أو المتطرف في مدرسة هيجل، هو الاستئثار بالسلطة؛ ولذا كانت العلمانية غير مساوية لمفهوم الفصل بين الكنيسة والدولة، بل كانت إلغاء للثنائية، وذلك بهدم الدين كمقدمة ضرورية للوصول إلى "السلطة المنفردة" التي هي سلطة "جماعة العمل" أو "المجتمع" أو "الدولة" أو "الحزب"؛ حسب تحديد بعض هؤلاء اليساريين المتطرفين.

ثالثا: أن البحوث الطبيعية والتقدم العلمي بالتدريج، منذ نهاية القرون الوسطى، هي التي جرأت أرباب هذا الفكر العلماني على الخروج على وصاية الكنيسة، وعلى الاستقلال في النشاط الإنساني، وحركة المجتمع، والتحرر عن أي رأي يصدر منها.

رابعا: أن الفكر الفلسفي العلماني . سواء في مرحلته الأولى أو الثانية . لم يسلم أوربا من مواجهة فكر فلسفي آخر معارض؛ فقد قامت مدرسة "كمبردج" بمعارضة الفيلسوف هوبز، أشد المفكرين العلمانيين صلابة ضد الكنيسة في مرحلة العلمانية الأولى، كما قام كثير في المرحلة الثانية منها بمعارضة المادية عند فيرباخ، والمادية التاريخية عند ماركس، وبنقض الأسس الفلسفية التي تبناها الاتجاه المادي المعاصر، سواء أكانت أسسا تنتهى إلى دائرة البحث الطبيعي أو إلى دائرة الاقتصاد، وأبرز المعارضين لهذا الاتجاه المادي كتلة المنشقين اليساريين من أتباع "برنشتين" الذين لقبوا من أعدائهم اليساريين.. بالمرتدين ثم ما قام به في القرن العشرين من معارضة الفيلسوف الاجتماعي الألماني "ماكس فيبر" لأساس الاقتصاد بصفة خاصة. وبلغ من تأثير ما نالته المعارضة من هذا الاتجاه المادي؛ إذ أصبح يوصف في الفكر الأوربي نفسه "بالثورية" دون أن يوصف "بالفلسفي" .. الأمر الذي يدل على أنه يعبر عن عاطفة وحماس، أكثر منه تعبيرا عن فكرة وتأمل.

خامسا: أن الموطن الذي ولد فيه الفكر العلماني . في مرحلتيْه . وهو: انجلترا، وفرنسا، وألمانيا، لم يأخذ بالاتجاه العلماني بالتطبيق في الحياة العملية[7].

وبعد.. فهل استطاع الغرب المغترب عن القيم الدينية والمغيب عنها، هل استطاع أن يكتفى بدينه أو بالأحرى أديانه الوضعية الجديدة؟ وهل استطاعت هذه الأديان أن تحقق له التوازن والسعادة؟ والإجابة الأقرب إلى الصواب هي بالنفى لا بالإيجاب!

ولا تعليق لنا بعد ذلك إلا أن نذكر قول الحق تبارك وتعالى: "أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون". آل عمران: 83. وقوله جل شأنه: "وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون". العنكبوت: 12. فما أكثر الذين يريدون افتتان المسلمين عن دينهم، وارتدادهم عن عقيدتهم باسم التقدمية تارة، وباسم التحرر تارة أخرى!

موقف الإسلام من العلمانية:

في مستهل الباب الأول وتحت عنوان "مشكلة العلمانية" من كتابه الهام "الإسلام في حل مشاكل المجتمعات الإسلامية المعاصرة"، يتساءل الدكتور البهي: هل المجتمع الإسلامي في ظل الإسلام ومبادئه: في الحكم والسياسة، وفي نظرته إلى الإنسان، وفي تحديد منهج السلوك له.. تنشأ له مشكلة تتعين العلمانية حلا لها؟ ثم يواصل التساؤل بسخرية ومرارة: أم أن العلمانية كحل يتطلب أن نستورد أولا من الأجنبي مشكلته؟ فإن صعب استيرادها فلنتصورها على الأقل، ثم تكون العلمانية عندئذ حلا لوهم، وليست لواقع قائم فعلا؟!

الإسلام دين الله الخاتم، ارتضاه الله للإنسانية في طورها النهائي، بعد أن شبت عن الطوق، وبلغت رشدها، واكتمل نضجها العقلي والوجداني، وهو في الوقت ذاته لا

يختلف مع جوهر الشرائع السماوية التي سبقته. فكل الأديان السماوية من مشكاة واحدة، والله تعالى يقول: "إن الدين عند الله الإسلام". آل عمران: 19. ومن ثمّ لا يعترف بالأديان الأرضية أو الوضعية، التي صاغها البشر، إن جاز أن نسميها أديانا.

وهو يدعو البشرية إلى عقيدة التوحيد، دون ما إكراه أو إجبار، والله تعالى يقول: "لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم". البقرة: 256. ومع ذلك فإن الإسلام يعتنق مبدأ المساواة في الأحكام بين الطوائف التي تعيش في أرض الإسلام، وهو ودين لا يتناقض مع العلم؛ بل إنه يدعو إليه بكل السبل؛ ولهذا يلفت أستاذنا الدكتور البهي إلى أن النهضة التي حققتها تركيا، بعد أن سار بها كمال أتاتورك في ركب العلمانية، لا ترجع في واقع الأمر إلى محاولته طرح الدين جانبا، وإنما يرجع في الأساس إلى مساعدة الغرب لها، مساعدة غير مشروطة، مُكافأة منها لتشجيعها على الاستمرار في نبذ الدين، والتجرد من عقيدة الإسلام[8]. إلا أن صحوة الشبيبة في تركيا بدأت تعود إلى فطرتها الأولى في الإقبال على تعلم القرآن في المدارس الأهلية، وما حدث في تركيا حدث مثله في كثير من أقاليم الاتحاد السوفييتى السابق.

الوضع في مصر:

والملاحظ في مصر . حينما عُيّن الإنجليزي العلماني دنلوب مستشارا لوزارة المعارف . وفي غيرها من الدول العربية والإسلامية، التي هبت عليها رياح العلمانية واكتوت بنارها، في وقت من الأوقات، أن ذلك كان دائما يتواكب مع الدعوة إلى مهاجمة اللغة العربية، التي نزل بها القرآن الكريم، وطمْس معالمها، وفرض التعليم بلغة أوربية (غالبا إنجليزية وفرنسية)، وفي الوقت ذاته تشجيع اللغة العامية، وذلك كله للحيلولة دون انتشار الثقافة الإسلامية والقضاء على التراث الإسلامى، وتحويله إلى

تراث غير مفهوم، بالنسبة للأجيال الجديدة؛ فتنقطع الصلة بينها وبين منابع دينها وتراثها وهويتها العربية الإسلامية. والحق الذي لا مراء فيه أن الإسلام يدعو إلى العلم الرشيد، ليجتمع العلم والإيمان في توازن بين المادة والروح، بينما تدعو العلمانية إلى التخلي عن الدين، وهي بذلك إنما تدعو المرء إلى أن يسير على قدم واحدة، أو أن يصفق بيد مفردة! وهذا بالقطع متعارض ومناقض للفطرة السليمة. والعلمانية إذن ليس لها مع الإسلام مكان في وجود الإنسان. فإما أنه يوجد الإسلام .. ولا علمانية، أو توجد العلمانية.. ولا إسلام.

فالعلمانية في تصور بعض المسلمين المعاصرين، وفي محاولتهم التوفيق بينها وبين الإسلام في مجتمع إسلامي .. تعود إلى قصور في تصور الإسلام، ثم إلى رغبة في محاكاة حلول الغرب، لمشاكل كانت وليدة البيئة الغربية، ونتيجة الصراع فيها حول السلطة والتفرد بالقوة في كل جوانبها في المجتمع الأورُبي[9].

الإسلام دين يدعو إلى العلم والمعرفة والكشف:

إذا كانت الحضارة الحديثة أساسها العلم، الذي يهدف إلى تمكين الإنسان من الانتفاع بموارد البيئة، وتيسير أمر معيشته فيها، كما يهدف العلم أيضا إلى التقدم في كل المجالات التي من شأنها أن تؤدي إلى توفير الرخاء والسعادة للإنسان، عن طريق التطور الصناعي، وتحسين الخدمات الصحية، وتوفير الكساء والغذاء السليم وغير ذلك من أساليب. إلا أن كل ذلك لا يكفي وحده لجعل الإنسان سعيدا قرير العين!

وفي كتابه القيم بعنوان "الإسلام في حياة المسلم"، يقول الدكتور البهي: الحضارة الحديثة فيها العلم وفيها زينة الحياة الدنيا ومنافعها. والإسلام . وهو دين الحياة في مرحلتيها الأولى والأخيرة . يقف من المعرفة موقف المُشجع على تحصيلها والإفادة بها في التوجيه. وهو يحث على العلم؛ لأن الجهل لا ينشر إلا كل رذيلة. فالعَالِمُ في نظر

الإسلام ثمرة علمه .. أن يكون حسنا في سلوكه، وأن يكون على بينة في اعتقاده. أما الجاهل فلا يتبين رشده من غيه؛ ولذلك لا يحسِن في معاملته وفي تحديد علاقته بغيره، وفي تحديد صلته بالله الخالق، يضل في هذه، ويغشى في تلك. يقول الله تعالى: "قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون". الزمر: 9.

الإسلام كدين ينصح في الدرجة الأولى بالعبادة وأداء فروضها. ومع ذلك يُروَى عن أبي أمامة الباهلى أنه قال: ذُكِر لرسول الله رجلان، أحدهما عالم، والآخر عابد، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم ". .. فالرسول الكريم آثر العالم على العابد. ذلك لأن العالم قلما يعبد الله على حرف، وقلما يجنح عن الصواب في عبادته. أما العابد فقد يدخل عليه في الصورة التي يؤدي بها عبادته ما يجعل العبادة بعيدة عن أن تكون قربى إلى الله تعالى، وطاعة صحيحة في واقع أمرها للمولى عز وجل.

ولذلك فالرسول صلى الله عليه وسلم قدّر العلم، وأكد قيمته فجعله كفارة لصاحبه عن ذنوبه الماضية، كما جعله وسيلة لتحصيل ثواب الله في الآخرة. يروي أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من طلب العلم كان كفارة لما مضى". ويروى عنه كذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله به طريقا إلى الجنة ".

الإسلام بذلك يقر الدعامة التي تقوم عليها الحضارة الحديثة، وهي دعامة العلم والمعرفة، ويؤكد في النصح بشأنها.

أما الغاية التي تشير نحوها هذه الحضارة، وهي تمكين الإنسان من الانتفاع بهذه الحياة الدنيا في أرضها وسمائها، وهوائها ومائها، وجبلها وسهلها، في صورة سهلة سليمة . فالإسلام لا يعرقل سير الخطوات نحو هذه الغاية الإنسانية، بل يشدد النكير على من ينفر الإسلام منها، ويدفعها على الوقوف دونها. يقول الله سبحانه وتعالى: "قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في

الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون". الأعراف: 32 .. فالله جل شأنه هنا فوق أنه أنكر على من يحرم زينة الحياة وما فيها من مباهج ومنافع مادية، فوق أنه أنكر عليه صنيعه هذا . يؤكد أنها للمؤمنين خالصة، بمعنى أنه ليس على المؤمنين من شائبة نقص إذا استخدموها، وسعوْا إليها. ثم يزيد على ذلك فيذكر أن من يحرمها ليس من جنس عقلاء البشر: "كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون". الأعراف: 32.

الإسلام بعد هذا الإجمال، في موقفه من زينة الحياة الدنيا ومنافعها، تناول بعض مقومات هذه الحضارة وبعض العناصر الرئيسية التي تتكون منها: ذكر الحديد وقيمته ومدى منفعته للناس، فقال الله جل شأنه: "وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز". الحديد: 2. ويقول: "ولقد آتينا داود منا فضلا، يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد". سبأ:10. إلى غير ذلك من الآيات التي تشير إلى العناصر الرئيسية الأخرى . كالنحاس والفحم، والذهب، والفضة، وغيرها.

والإسلام بهذا وذاك يقف من الحضارة الحديثة موقفا إيجابيا. إلا أنه فقط يحذر من خداع الإنسان بمتع هذه الحياة، يحذره من أن تصبح له فتنة، ويصبح مفتونا بها، يركز نظرته في الحياة إليها وحدها، ويقصر نشاطه وسعيه على تحصيلها، تاركا الهدف الأساسي في الحياة كلها، والوجود كله، وهو الله سبحانه وتعالى، والإيمان به. وهذه المتع . لذلك . إن كانت زينة هذه الحياة، فإنها من جانب آخر موضوع لاختبار الممتعين في تصرفهم إزاءها، وفي الإيمان بالله بعد ذلك. يقول الحق سبحانه: "إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا". الكهف: 7. يحذر الإنسان من الافتتان بهذه المتع حتى لا تسيطر عليه مادية الحياة الدنيا، فينسى النوع الآخر من الحياة، وهو الحياة الأخروية. وإذا نسي هذا الضرب الآخر من الحياة، لم يعد يخشى الله وجزاءه. وإذا انتزعت من قلبه خشية الله، عامل نفسه معاملة المستغني

وعندئذ يطغى فتهلك نفسه، ويهلك غيره معه إن أصيب بطغيانه. يقول الله جل شأنه: "كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى". العلق: 7.6.

الإسلام يريد أن تبقى زينة الحياة زينة لمن يباشرها، ويتمتع بها، ولكنه يمنع من أن تتحول إلى مصدر للإهلاك والشقاء فتخرج عن طبيعتها[10].

الإسلام يُعْلى قيمة الإنسان:

يركز الدكتور البهي في دراساته أن مبادئ الإسلام وقيمه العليا تضع الإنسان في مكانه الصحيح حيث أراده خالقه . تبارك وتعالى . فتنأى به عن الشرك الذي يشينه ويهبط به إلى الدرك الأسفل، إلى حيث طفولته الفكرية، وفقدانه للتمييز بين الحق والباطل، وهو في هذا الصدد يقول في رسالته الموجزة والمعنونة: "المجتمع الإسلامي وأهدافه": عبد الإنسان في القديم الحيوان، وعبد الصنم من الأحجار، وعبد الإنسان، قال تعالى: "ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون". يونس: 18.

ثم يزيدنا إيضاحا بقوله: "عبد الإنسان من دون الله ما ذكرناه وما لم نذكره، وربط مصيره في الحياة بتلك الكائنات الأرضية التي لا تسمع الدعاء، وإن سمعته فلا تجيبه، لعجز عن الفهم أو عن التصرف. ثم جاءت رسالة الإسلام بالدعوة إلى الإيمان بالله وحده، وقد كانت هي دعوة الرسل السابقين، يقول الله تعالى موجها الحديث إلى سيدنا محمد . صلى الله عليه وسلم: "وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون". الأنبياء:25. جاءت بهذه الدعوة لتعيد إلى الإنسان قيمته؛ لتصحح له وضعه في الحياة والوجود، يقول الله تعالى: "هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ". البقرة :29. وقوله تعالى: "ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ". لقمان:20. ووضعه

في الحياة هو الوضع الذي هيأ لصاحبه ما في الأرض جميعا. وسخر له ما في السماوات وما في الأرض من جبال وأنهار ومن بر وبحر وجو، وأحيط بما في ذلك كله من نعم وقف عليها أو هو في سبيل الوقوف عليها مما لم تتكشف له بعد: "ظاهرة وباطنة"، وكان وضعه في الحياة والوجود هذا الوضع لأنه المخلوق الذي أعد للانتفاع بالوجود: "الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين. ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين. ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون". السجدة: 7 . 9، فبجانب الحياة: "ونفخ فيه من روحه"، وهي القدرة على الحركة والسعي التي زودت الإنسان بها طبيعة الإنسان كأي كائن حيّ . كان السمع والبصر وهما أقوى وسائل الحس في الإدراك للمشاهد، وكان الفؤاد وهو شعار القلب مركز الإيمان والاعتقاد، وشعار العقل مصدر الإدراك والتصور لما غاب عن الحس والشاهد. وبالسمع والبصر والفؤاد تميز الإنسان، ومن أجل تميزه كان له هذا الوضع الخاص في حياة الوجود كله، الذي أرادت رسالة الإسلام . عن طريق الدعوة إلى الإيمان بالله وحده . أن تعيد إليه الوعي والشعور به.

فالدعوة إلى الإيمان بالله وحده إذن تنطوي على تعريف الإنسان بمنزلته ووضعه وقيمته في الحياة. ومن الكرامة للإنسان، كمخلوق متميز عما عداه من مخلوقات، أن يعرف وضعه الصحيح وقيمته الذاتية. ومن المهانة له والسخرية منه، والاستخفاف به أن يبقى في دائرة ما انحدر إليه في الاعتقاد من عبادة غير الله ممن هو دونه أو مثله في الخلق[11]. وعلى ذلك فالإنسان أحوج ما يكون إلى الإنابة إلى خالقه وبارئه، وأن الحاجة إلى الدين مسألة فطرية، لا يستريح المرء وتسكن جوارحه ويلتئم شمله إلا بالإقرار والتسليم لهذه القوة العليا، وهنا يحس بالأمن، والأمان والطمأنينة والسلام. وإن الاطلاع على أحوال العالم المعاصر تنبئ عن أن التقدم المادي الذي وصل إلى أقصى مداه، مع افتقاد الإنسان للإيمان، لم يمنحه السعادة والسكينة القلبية، لدرجة أن سادت هذه المجتمعات الغربية المترفة والمشبعة، حالة من انعدام الثقة وفقدان

الطمأنينة، أدت إلى ارتفاع معدل الجريمة وحالات الانتحار؛ مما يدل على انهيار نفسية الإنسان المعاصر في ظل تكالبه على المادة، وفقدانه للإشباع الروحي والديني.

حاجة الإنسان إلى الدين:

إذا كان الدين الإسلامي هو الدين السماوي الذي ارتضاه الله سبحانه وتعالى للبشر في آخر الزمان، بعد أن اكتمل للبشرية رشدها ونضج عقلها، فإنه والشرائع السماوية التي سبقته، الكل يغترف من معين واحد، ويستلهم نوره من المشكاة نفسها، ولذلك يشير القرآن الكريم في أكثر من آية، إلى أن الأنبياء كلهم مسلمون، كما يشير أيضا في خواتيم سورة البقرة إلى إيمان رسولنا الكريم ومن اتبعه من المسلمين بجميع الأنبياء والرسل السابقين دون تفرقة أو تمييز بينهم، فجوهر الأديان كلها واحد هو الإسلام؛ ولذا يشير القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة في قوله تعالى: "إن الدين عند الله الإسلام". آل عمران: 19. وخالق البشر هو سبحانه أعلم بما يصلحهم ويقوّمهم؛ ولذا فقد بعث الله إليهم الأنبياء والرسل؛ لإرشادهم . رحمة منه . لكل خير، وتحذيرهم من كل شر، دون ما إكراه أو إجبار، وحتى يسقط حججهم . وهو الغني عن ذلك . يوم البعث والحساب. وفي ذلك يقول الدكتور البهي: فالله . تبارك وتعالى . باعتبار أنه رب الجميع، ومستغن عن الجميع، ومستعل على الجميع . يحدد الخير بما فيه مصلحة الجميع، ويرسم طريقه، بما يكون ميسرا للجميع، ويحدد الجزاء على فعله وتركه، بما يناسب أثر هذا الخير في صالح الناس جميعا، ويلتئم مع طبيعة أنفسهم[12]. ويستطرد ليقول: وليس لله غرض، وليست له حاجة قريبة أو بعيدة في تحديد الخير الذي ينصح باتباعه، وكذلك لم يتأثر بأي مؤثر في هذا التحديد.. ولأنه يعلم طبيعة البشر حق العلم، فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء. ويكون فيما يرسمه لطريق الخير، متفقا تمام الاتفاق مع إمكانات هذه الطبيعة، كما يكون تحديد الجزاء مناسبا لنفع هذه الطبيعة من فعل الخير، ونفعها أيضا من تجنب الضرر الذي نهى

عنه[13]. ثم يسوّغ ذلك بقوله: أما الإنسان في فلسفته وتقنينه فهو محدود بالبيئة، ومحدود بالوراثة، وبنوع الثقافة ونوع المعرفة.. ويزيد الأمر توضيحا فيقول: فإنسان القرية غير إنسان المدينة في إدراكه للحياة وتعبيره عنها. وإنسان الأسرة الصالحة غير إنسان الأسرة التي عاشت في الانحراف أو الإجرام، في تصور القيم الأخلاقية والروابط الاجتماعية.. والإنسان الجاهل في تصوره واعتقاده، غير المستنير في إدراكه وفي إيمانه. وإنسان المعرفة من نوع خاص غير إنسان المعرفة من نوع آخر، فالطبيب غير المهندس، وكلاهما غير صاحب الثقافة الزراعية، وجميعهم غير رجل المحاسبة، وهلم جرا.. وإذا كان محدودا بهذه المصادر فهو منفعل بها، وتنعكس في سلوكه وفي تفكيره وفي تحديده للحياة وأهدافها[14].

وفي كتابه القيم: "الإسلام في حياة المسلم"، في الفصل الأول تحت عنوان: "طبيعة الإنسان في حاجة إلى توجيه إلهي"[15]، يورد بعض الاقتباسات من القرآن الكريم لبيان طبيعة الإنسان وأن الدين غريزة إنسانية، إن جاز هذا التعبير، ومنها قول الله تعالى: "وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه، ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله، قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار". الزمر: 8. ومنها قول الله تعالى: "وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما، فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه، كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون". يونس: 12. ومنها أيضا قوله تعالى: "وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه، وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض". فصلت: 51.

وقد نزلت هذه الآيات .كما يقول الدكتور البهي . في أولى مراحل الإسلام، وهي مرحلة الدعوة إلى التوحيد، ومن ثم فهي تشير إلى طبيعة الإنسان قبل أن تتأثر بالتوجيه وبرسالة الرسول عليه الصلاة والسلام، وتوضح طبيعة الإنسان في تردده بين حال العسر وحال اليسر، حال المرض وحال الصحة، بين قوة الشباب وضعف الشيخوخة، بين الجهل والعلم، أو بين الشر والخير على العموم. كما تذكر أن

الإنسان في حال العسر والضيق والضعف والمرض أو حال أزمة النفس أو كربتها، في كل تلك الحالات يضرع إلى المولى الخالق ويتجه إليه بالدعاء، ويلح في دعائه، في كشف الغمة عنه، وتبديل حال السوء الذي يشعر به، حتى إذا تبدل الحال وأنعم الله عليه بالفرج بعد الضيق والشدة نسي حاله الأول وطغى وبغى. هذه هي طبيعة الإنسان، والله تبارك وتعالى يقول وهو أصدق القائلين: "إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى". العلق: 6–7؛ ولذلك يُذَكِّرُه ربه، بعد ذلك مباشرة بقوله تعالى: "إن إلى ربك الرجعى". العلق: 8.

ثم يستطرد، في موضع آخر ليقول: تلك سنة الإنسان في حياته وفق طبيعته. ولو ترك وطبيعته تتحكم فيه، ويسير فيما تدفعه إليه، دون أن يأخذ بتوجيه الله سبحانه وتعالى، ودون أن يروض نفسه على العمل بما جاء فيها لصار أمر الناس إلى فريقين: فريق له القوة في صورة من صورها. وهذا لا يرعى حرمات غيره، ولا حاجاته، ولا يقدر بشريته على العموم. وفريق آخر ضعيف ومستضعف، ذليل ومستذل، لا يؤمل كثيرا في صاحب القوة في جماعته، ولا يترقب أن يستدر بضعفه وحاجته عطف صاحب المال والجاه والقوة معه. وعندئذ لا يكون المجتمعون في رقعة واحدة جماعة، وعندئذ لا يوجد الشعور بالإنسانية بين طرف وطرف، بل الأمر حينئذ خصومة ونفرة من الجانبين. ثم بالإضافة إلى ذلك حقد وحسد من الجانب الضعيف، واستخفاف بالقيمة البشرية والأخوة الإنسانية وصلات القربى في الوطن الواحد من جانب القوي صاحب الجاه وصاحب الثراء والنعمة[16].

وبين الميلاد والوفاة كان دوره:

ويلخص الدكتور البهي جوهر دوره الفكري، بمنتهى التواضع والعفوية، في ترجمته الذاتية تحت عنوان: "حياتي في الأزهر طالبا وأستاذا ووزيرا"، وذلك بقوله: وأعتقد أني قد ساهمت إلى حد ما في عرض الإسلام في مواجهة التحديات الأيديولوجية الماركسية والمنطقية الوضعية[17].

وقد توفي الدكتور البهي في التاسع من سبتمبر عام 1982، وفي ذلك تقول زوجه السيدة هدى الغاياتى (ابنة الشاعر الوطني علي الغاياتي)، بعد رحلة معه قوامها أربعين عاما من التعاون والمشاركة: لازلت أذكر ما كان عليه الدكتور . رحمه الله . من جد وحزم لم يمنعا ما كان يتمتع به من عطف وخير بقدر ما تسمح به إمكاناته، وقد عاش حياة كلها تضحيات.. تضحيات تعرفها المثل العليا والقيم النبيلة ثم الصفوة من تلاميذه الذين ظلوا على وفاء نادر لهذا الرجل العظيم[18].

المراجع والتعليقات:

(1) د. محمود حمدي زقزوق (2004) موسوعة أعلام الفكر الإسلامي. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة. ص 922.

(2) انظر في هذا كتاب د. جلال أمين: "عصر التشهير بالعرب والمسلمين"، الصادر عن دار الشروق بالقاهرة، والتي أعادت طبعه، على نطاق واسع، مكتبة الأسرة عام 2004؛ وكتاب: طارق البشرى (2003): العرب في مواجهة العدوان. الهيئة المصرية العامة للكتاب. (مكتبة الأسرة)، وكتاب: برنارد لويس (2004): الإسلام وأزمة العصر. الهيئة المصرية العمة للكتاب (مكتبة الأسرة).

(3) د. محمد البهي (1961): الإسلام والمجتمع. مجلة الأزهر: الجزء الأول، المجلد الثالث والثلاثون، ص 21.

(4) المصدر السابق، الموضع نفسه.

(5) د. محمد البهي (1978): الإسلام في حل مشاكل المجتمعات الإسلامية المعاصرة. مكتبة وهبة بالقاهرة. الطبعة الثانية. ص 12.

(6) المصدر السابق، ص 13.

(7) المصدر السابق، ص 33.

(8) المصدر السابق، ص 49.

(9) المصدر السابق، ص 12.

(10) د. محمد البهي (1995): الإسلام في حياة المسلم. الطبعة الثالثة. مكتبة وهبة بالقاهرة. ص 478.

(11) د. محمد البهي (ب. ت.): المجتمع الإسلامي وأهدافه. مطبعة الأزهر. ص 7.

(12)د. محمد البهي (1964): الدين والحضارة الإنسانية. دار الهلال بالقاهرة، ص83.

(13)المصدر السابق، الموضع نفسه.

(14)المصدر السابق، ص 84.

(15)د. محمد البهي (1995): الإسلام في حياة المسلم. الطبعة الثالثة. مكتبة وهبة بالقاهرة. ص151.

(16)المرجع السابق، 154.

(17)د. محمد البهي (ب. ت.): حياتي في رحاب الأزهر طالبا وأستاذا ووزيرا. 139.

(18)هدى علي الغاياتى (1415). من مقدمة رسالة: العلمانية والإسلام بين الفكر والتطبيق، للدكتور البهي، هدية مجلة الأزهر لعدد ربيع الآخر للعام 1415 هـ. ص 9.